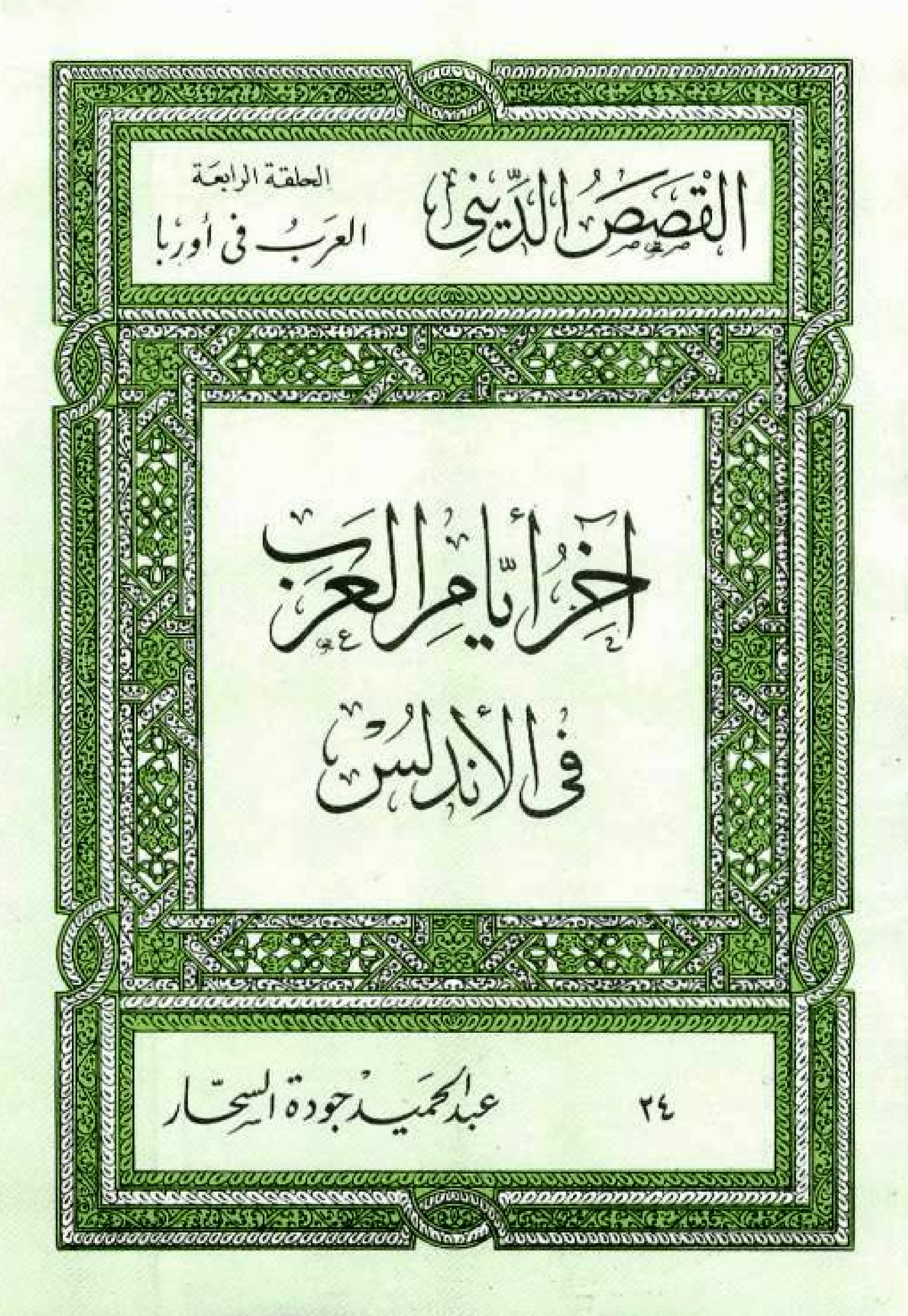


القصص الديني

الحلقة الرابعة

العرب في أوربا

آخر أيام العرب في الأندلس

٢٤

عبد الحميد جودة السحار

آخر أيام العرب فى الأندلس

١

ضَرَبَ فِرديناندُ الحِصارَ على مدينةِ غَرناطة ، آخِرِ معقل للمُسلِمينَ فى الأندَلُس ، وأنشأ لجيوشِهِ مدينةَ «سانتافى» فى سهلِ مَرجِ غَرناطة ، فقد عَزَمَ على أن يستمرَّ حِصارُ المَدينة ، حتى تسقُطَ فى يده ، ويقضِيَ بذلكَ على دَولةِ المسلمينَ فى أسبانيا .

وتَدفَّقَت جُيوشُ النّصرانِيّةِ كالموجِ الزّاخِر ، وقد تزوّدتْ بالمَدافِعِ والذّخائِر ، وراحتْ تُهاجِمُ الفِئَةَ القليلةَ المُحاصَرة ، التى وقفتْ وحدَها فى الميدان ، تقاتِلُ عن دينِها وأعراضِها ، لا أمَلَ لها فى مَدَدٍ يأتيها من الخارج ، وقدِ انحصَرَ الرَّجاءُ فى عزيمةِ رجالِها ،

وما بَقِىَ فى المَدينةِ من أغذِيَةٍ ومؤن .

رأى فارسُ المسلمينَ موسى بنُ أبى غسّان ، أنّ الهُجومَ خيرُ وسيلةٍ للدّفاع ، فجمعَ الفُرسانَ الصنّادِيد ، الذينَ وهَبُوا حَياتَهم للمَوت ، وانطَلَقَ على رأسِهم ، يشُقُّ طريقَه فى جُيوشِ النّصرانِيَّة ، التى أطبقتْ على غَرناطَة من كل جانب ، يلعبُ بسيفِه ، يقُطُّ الرُّءُوسَ ويُثخِنُ العَدُوَّ بالجِراح ، ويوقِعُ الاضطرابَ بين صُفوفِه ، حتى إذا ما بلغَ به وبمن معه الجَهد ، عادَ إلى غرناطَةَ يستَرِيح ، ليَستأنِفَ جِهادَه ، والأعداءُ يرمُقونَه فى دَهشٍ وإعجاب .

وراحَ الخُطباءُ يُحرّضونَ المسلمين ، ويُذَكّرُونَهم بأفضلَ ما فيهم ، ويُبَصّرُونَهم بعواقِبِ الهزيمة ، فتأجّجَت نارُ الحَماسةِ فى صدورِهِم ، واستأسَدُوا فى الدّفاعِ عن غَرناطَة ، آخرِ معاقِلِ المسلمين ، فقد تيقّنُوا أنّ فى اندحارِهم القضاءَ على حياةِ

الإِسلامِ فى الأندَلُس .

٢

وبلغَ بايزيدَ الثانىَ العُثمانىَّ ما يُقاسِيهِ مسلمو غَرناطَة ، فعقدَ العَزمَ على أن يشُدَّ أزرَهم ، حتى يستطيعُوا أن يقِفُوا فى وجهِ فِرديناند ، وأن يُعيدوا للإِسلامِ سَطوتَه فى أسبانِيا ؛ فاتَّفقَ مع السُّلطان قايتباى ، ملكِ مصر ، على أن يُرسِلَ بايزيدُ أسطولاً إلى أراضى أسبانيا ، وأن يُرسِلَ قايتباىُ جيشًا من جهةِ أفريقِيَّة ؛ وبدأ العاهِلان فى تجهيزِ الحَملة ، ولكنْ حدَثَ ما لم يكنْ فى الحُسبان .

ثارَ كركود وأحمد وسليم ، أبناءُ بايَزيدَ على أبيهم ، واندلَعتْ نارُ الحربِ الأهليَّة ، ولم تُطفَأ الفِتنةُ إلاَّ بتنازُلِ بايزيدَ عنِ الخِلافةِ لابنِه سليم الأوَّل ، وفى غِمارِ هذه الثورة ، ماتتْ فكرةُ بعثِ أسطول عُمانِىٍّ لإِنقاذِ مسلمى غَرناطَة .

واغتَنمَ فِرديناندُ وإيزابلاّ هذه الفُرصة ، فأوفَدا إلى قايتبـاىَ ملـكِ مصـر ، مسيو بطْرُه مارتـير سـفيرا ؛ وكان بطْـرُه حاذِقًا مـاهرا ، فـأخذَ يُقنِـعُ قايتبـاىَ أنّ الأسـبانِيِّين لا يُضمـرونَ عَـداوةً للإسـلام ، ولكنّهـم يُدافِعونَ عـن حُرِّيـاتِهم ، ويُقـاتِلونَ العـربَ الذيــنَ اغتَصبُــوا دِيـارَهم ، ونهَبُـوا أموالَهـم ، وأبـــاحُوا حُرمـاتِهم ، وعـاثُوا فى أرضِهـم فســادا ؛ فـاكتفَى قايتباىُ بأن أرسلَ إلى فِرديناندَ وإيزابلاّ والبابا وملِكِ نابُولى ، كتبا يطلبُ فيها الرِّفـقَ بمُسـلِمى الأندلُـس ، وعدَمِ إرهاقِهم .

ولم يُسمَعْ رَجاءُ ملكِ مصر ، فقد كانت أصـواتُ المَدافِعِ وصَلصلَةُ السُّيوفِ عندَ أسوارِ غَرناطَة ، عاليةً تُصِمُّ الآذان .

ووُئِدت فِكرةُ نُهـوضِ المسـلمينَ للدِّفـاعِ عــن غَرناطَة ، مَعقِلِهم الأخيرِ فى أسبانيا .

٣

أشرفَ فِرديناندُ الخامِسُ على حُصونِ غَرناطَة ، وبعثَ إلى أبى عَبدِ اللّـه ، يدعُوهُ إلى التّسليم ، فأطرقَ يُفكّر ، وإذا بصيحاتِ الحَرب ، والهُتافاتِ الحماسِيَّة التى كانت تنبَعِثُ من أفواهِ الشعب ، الذى أضرَمَ نارَه موسى بنُ أبى غَسَّان ، تَصُكُّ أُذُنَيه ؛ فعزَمَ على أن يرفُضَ دعوةَ فِرديناند ، وألاّ يلبسَ برضاهُ ثوبَ العار ، فأرسلَ إلى فِرديناند ، أنَّ المَوتَ خيرٌ من التّسليم .

وأرسلَ فِرديناندُ سَراياه ، لإتلافِ ما حَولَ غَرناطَةَ من مَزارعَ وحُقول ، ورابَطتْ سُفُنه فى مَضيقِ جبلِ طارق ، لتحُولَ دونَ وصولِ أىِّ مَدَدٍ من إفريقيَّةَ إليها ، ثم راحَ يُضَيِّقُ الحِصارَ على المدينة ، وقد عزمَ على ألاّ يرفَعَ عنها حِصارَه ، حتّى تخِرَّ ساجدةً تحتَ قدَمَيه .

ومَرّتْ شُهورُ الصَّيف ، والمدينةُ تُقاسى مرارةَ الحِصار ، والمؤنُ تتناقَص ، والحماسَةُ تخْبُو ، والعزائِمُ تضعُف ، وعوامِلُ الهزيمةِ تستَشرى في الجُموع ، وأقبلَ الشِّتاءُ ببردِه ، وغُطِّيتِ الوِهادُ والشُّعَبُ بالثُّلوج ، واحتاجَتِ الأجسامُ إلى أغذِيَةٍ تُمدُّها بالدِّفء ، ولكنْ عَزَّ الطَّعام ، وراحَ الجُوعُ يَعضُّ البُطونَ الخَاوِيةَ بنابه ؛ فازدادَ السُّخط ، ومَرِضتِ الأرواح .

واجْتَمعَ مَجلِسُ الحُكم ، يتشاوَرُ في الأمرِ ، فإذا بروحِ الهَزيمةِ تتحكَّمُ فيه . وقدِمَ حاكِمُ المدينة ، وقَرَّرَ أن المُؤنَ الباقِيةَ لا تكفى إلا لِبضْعةِ أشهر ، فازدادَ التَّشاؤُم ، وهمسَ هامِسٌ بوجوبِ التَّسليم . فانتفَضَ موسى بن أبى غَسّان ، وقالَ في ثورة : « إنَّ الدِّفاعَ واجِب ، وإنَّ قبرًا تحتَ أسوارِ غَرناطَة ، خيرٌ من قُصورِ الدُّنيا في ظلِّ الاستعباد » . فسرتْ رُوحُه الحماسِيَّةُ في المَجلس ، فقرَّرَ أبو عبدِ اللّه أن يُوَلِّيَ

موسى أمرَ الدِّفاع .

٤

وقَفَ موسى على رأسِ فُرسانِه خلفَ أسوارِ غَرناطَة ، ثمَّ أمَرَ بفتْحِ الأبواب ، وما إن فُتِحَتْ حتّى تدفَّقَ موسى وفُرسانُه منها كالبَحرِ المُزمجِر . والتقَى فُرسانُ المسلمينَ بجيوشِ فِرديناند ، ودارت رَحَى معركةٍ رهيبة ، كان موسَى بطَلَها الصِّنديد فألقَى الرُّعبَ فى صُفوفِ الأعداء ، وأجَّجَ نارَ الحَماسةِ فى صدورِ المسلمين .

وأقبلَ أبو عبدِ اللّه على رأسِ حَرَسِه المَلكِيّ ، وخَاضَ غِمارَ المعركة ، وتَوافَدَ المُشاةُ توافُدَ المَوجِ ، ومَشى الرِّجالُ إلى الرِّجال ، وسالَتِ الدِّماء ، وارتَفَعَتِ الصَّيحات ، ومالَ فُرسانُ فِرديناندَ على مُشاةِ المسلمين ، فزالُوا عن أماكنهم ، وفرُّوا هِرابًا ، يبغُونَ النَّجاة ، فلمَّا رأى حَرَسُ أبى عبدِ اللّه تشتُّتَ

المُشاة ، نكَصُوا على أعقابِهم ، وانطَلَقُوا صَوبَ المَدينة ، يبغونَ التّحصُّنَ بها .

وثارتْ ثائِرةُ موسى ، فراحَ يدعُو الفَارِّينَ إلى الثّبات ، والذِّيادِ عن أوطانِهم وأموالِهم ونسائِهم وأبنائِهم ، ولكنْ ذَهَبَتْ صَيحاتُه أدراجَ الرِّياح ، فثَبَتَ في المَيدان وحدَه ، وحولَه فُرسانُه البواسِل ، يُدافِعونَ عنِ الأرضِ التي تحتَ أقدامِهم ، فلَمْ يَعُدْ للمسلمينَ في أسبانيا أرضٌ غيرَها .

وشَدَّ رجالُ فِرديناندَ عليهم ، فجعَلُوا يُدافِعونَ عن أرضِهم دفاعَ اليائسِ المُستميت ، وراحَ فُرسانُ المُسلمينَ يتساقَطُونَ صَرعَى تحتَ ضَرباتِ النّصارَى ، التي كانت تُكالُ لهم من كلِّ جانب ، ولم يَبقَ إلاّ موسى في عُصبةٍ قليلة ، فلم يجدْ بُدًّا من الانسحاب ، والتّحصُّنِ خلفَ أسوارِ المدينة .

٥

راحَ كبارُ الجُندِ والفُقَهاءُ والأعيانُ يتقاطَرونَ على بهوِ الحَمراءِ الكبيرِ ، وقد عَلَت وجوهَهُم غَبرة ، ولاحَ في مُحَيَّاهُم الأسى العَميق ، وجلسوا ساهِمينَ مُطْرِقين ، حتّى إذا قامَ حاكِمُ المدينةِ يتحدَّث ، رفَعُوا أبصارَهم إليه ، ولم يظهَرْ في وجوهِهم الاهتمام ، فقد كانوا يعلمونَ ما سَيُنبئُهم به . قال حاكمُ المدينة : إنَّ المُؤَنَ قد نَضَبَتْ ، والبطونَ قد خَوَت ، والأمراضَ انتشَرَت ، وأنينَ الشَّعبِ قد علا ، فليسَ أمامَنا إلاَّ المَوتُ أو التَّسليم .

وارتَفعَتْ في القاعَةِ أصواتٌ تطلُبُ التَّسليم ، فهَبَّ موسى يقول : خيرٌ لنا أن نُذْكَرَ فيمن استُشهِدُوا في الدِّفاعِ عن غَرناطَة ، من أن نُذكَرَ فيمن سَلَّمُوها إلى الأعداءِ مختارِين .

ووضَعُوا أصابعَهم فى آذانِهــم ، وأعرَضُوا عنه ، فقد مـاتَت حماسَتُهم ، وبـاتت صُدُورُهــم مســرحًا لليأسِ المَرير .

استمعَ أبو عبدِ اللّه إلى رأى الجماعـة ، فـأوفَدَ حاكِمَ المدينةِ لُمفاوَضَةِ فرديناند على التّسليم . انطلـقَ الحاكِمُ بين جُموع أضناها طـولُ الحِصـار ، ونَهَكهـا الجُوع ، وهَدَّها المَرض ، وعبثَ بها اليأس ، فتعلّقَتْ به الأفئِدةُ القلِقة ؛ وما إن غابَ عنها حتــى خُفِضَتِ الرُّءُوس ، وترقْرَقَتِ الدُّموعُ فى العُيون .

اجتمعَ حـاكِمُ غَرناطَـةَ بفِرديـنانـدَ الخامس المَزهُوِّ بنصرِه . ودارتِ المُفاوَضاتُ بينَ المُنتَصِـرِ والمَهزُوم ، حتى إذا انتهت ، عادَ الحاكِمُ إلى غَرناطَة ، ليرفَعَ إلى مجلِسِ الحُكمِ شُروطَ التّسليم .

٦

واجتَمعَ كبارُ الجُندِ والفُقَهاءُ وأعيانُ البِلاد ، يستمعُونَ إلى الشُّروطِ الَّتى قبلَها فِرديناند ، وراحَ الحاكمُ يقرأ : « .... يقِفُ القِتالُ بين الفَريقَينِ سَبعينَ يوما ، إذا لم تصلْ خلالَها أمدادٌ إلى المُسلمين ، من إخوانِهم فى أفريقِيَّة ، سُلِّمتْ غَرناطَة ، ودخلَتْ فى طاعَةِ مَلكِ النَّصارَى ، وأن يُطْلَقَ سراحُ جَميعِ الأسرى من النَّصارَى بلا فِديَة ، وأن يُطلَقَ الأسرَى المُسلمونَ كذلك ، وأن يُؤَمَّنَ المسلمونَ على أنفسِهم وأموالِهم وأعراضِهم ، وأن يَحتفِظوا بشَريعَتِهم وقُضاتِهم ، وأن يتمتَّعُوا أحرارًا بشعائِرِ دينِهم ، من الصَّلاةِ والصَّومِ والأذانِ وغَيرِها ، ووأن تَبقَى المساجدُ حَرَمًا مَصونا ، لا يدخُلُ نَصرانِىٌّ مَسجِدًا أو دارَ مُسلم ، وألاَّ يُوَلَّى على المسلمينَ

نَصرانيٌّ أو يهودِيّ ، وأن يجوزَ إلى إفريقيَّةَ من شاءَ من المسلمين ، في سُفُن يُقَدِّمُها ملكُ النَّصارَى ، في مُدَّةِ ثلاثةِ أعوام ، وألاَّ يُقْهَرَ مسلمٌ على التَّنصُّر ، وأن يُوافِقَ البابا على هذه الشُّروط ، وأن يُغادِرَ أبو عبدِ اللّه غَرناطَةَ إلى البَشَرات ، حيثُ يُقطَعُ ضِياعًا يعيشُ فيها ، وأن تُقَدِّمَ غَرناطَةُ خمسَ مائةٍ من أعيانِها ، كَفالةً بالإخلاصِ والطَّاعَة .

فارتَفَعَ البُكاءُ والعَويل ، وصاحَ موسى بنُ أبي الغسَّان :

ـ كَفَى بُكاءً ، وإلى سِيُوفِنا ، نُدَافِعُ عن حُرِّيتنا ، ولْنَمُتْ مِيتةً نبيلة .

وقلَّبَ أبو عبدِ اللّه عينيه فيما حولَه ، فألفَى وجوهًا تنضَحُ باليأس ، فصاح :

ـ وَيلٌ لي ، كُتِبَ عليَّ أن أكونَ شَقِيًّا ، وأن يذهَبَ المُلكُ على يدي .

فقال الشيوخ :

- هذه مَشيئَةُ اللّه ، ولا رَادَّ لقَضائِه .

فصاحَ موسى :

- هـذا هو الخِزىُ والعَار ، لن يُوفِى النّصارَى بعهْدِهم ؛ سيسومونَكم سـوءَ العـذاب ، ويفتنونكـم عـن دينِكـم ، ويُدَنِّسونَ مساجدَكُم ، ويستبيحونَ نساءَكم ، ولَلموتُ أحَبُّ إلىّ من هذا .

ثمَّ خَرجَ وامتَطَى جَوادَه ، وانطَلَقَ كـالَمحموم فى طُرُقاتِ غَرناطَة ، ثمّ غادَرَها والشّمسُ فى مَغربِهـا ، وسارَ على ضِفّةِ نهر « شَنّيل » وقـدْ دُجّجَ فـى السّلاح ، وفيمـا هـو فى سَيرِه ، وقَعَ بصَرُه على سَرِيَّةٍ من الأسبان ، فلكـزَ جَـوادَه ، واندَفَعَ صَوبَ أعدائه ، وراحَ يطعَنُهم بُرمحِه ، وانقَضَّ عليهم كليثٍ كاسر يُجَدِّلُ هـذا ، ويصـرَعُ ذاك ، حتّـى سـقَطَ جوادُه تَحتَه . فتكاثَرُوا عليه ، فاستَلَّ خِنجَرَه يطعنُ به ، ويُدافِعُ به عن نفسِه ، ووجَدَ انـّه سيقَعُ أسيرًا

فى أيدى أعدائِه ، فأبى أن تكونَ هذه نهايَتَه ، فألقَى بنفسِه فى اليَمّ ، ولَقاعُ البحرِ خَيرٌ من ذُلِّ الأسْر ، وعارِ الاستسلام .

٧

وسَقَطتْ غَرناطَة ، ولم يمضِ على تسليمِها إلاّ أعوامٌ قلائِل ، حتّى نَقَضَ الأسبانُ عهدَهُم ، فأغلَقُوا المَساجد ، وحُرِّمَ على المُسلمينَ إقامَةُ شَعائِرهم ، وراحَ البابَواتُ يُصدِرونَ المَنشورات ، لإثارةِ المَسيحِيِّينَ على المُسلمين ، فازدادت مظالِمُ الأسبان ، وضاقَ بعضُ المسلمين بهذا الطُّغيان ؛ فثاروا فى الجِبال وفَتكُوا بمن كان يُذِيقهمُ الذُّلَّ من الحكام .

وثارَ القُسُس ، ونادَوا بوجوبِ تَنَصُّرِ المسلمين ، أو طَردِهم من البلاد . واشتدَّ الكربُ بالمُسلمين ، ففرَّ بدينِه من قَدَرَ على الفِرار ، وفُتِنَ عن دِينِه المُستضْعَف ، الذى عَجزَ عن الهِجرة ، واللُّحوقِ

بإخوانِه المسلمين ، وأقيمَت مَحاكِمُ من القُسُس ، لمحاكَمةِ مَن تَبدُرُ منه بادرةٌ من المسلمينَ المُتَنَصِّرين ، فكانُوا يحكمونَ بحرْقِه أو بسجنِه ، ويُنزِلونَ به أقصَى أنواعِ العذاب ، ويُنكِّلُون به نكالاً شديدا ، فقد كانَ الأسبانُ مُتَعَصِّبينَ غايةَ التعَصُّب ، ولم يتلَقَّنُوا شيئًا من السَّماحَةِ الدِّينيَّة ، التي عامَلَهم المسلمونَ بها طَوالَ القُرونِ الثَّمانِية ، التي كانوا يعيشونَ فيها في أمنِ الإسلام ، وعَدالَتِه وسَماحَتِه .

واختَفى من أرضِ أسبانيا ، الشَّعبُ العربيُّ الباسِل ، المُتَيَقِّظُ المُستَنِير ، الذى أحيا بهِمَّتِه تلكَ الأرضَ المُجدبَة ، والذى بعثَ من جامِعاتِه العربيَّةِ العَتِيدة ، نُورَ العِرفان ، الذى أخرَجَ أوروبَّا من ظلامِ الجَهلِ ، إلى نورِ العلمِ الحديث .